

ضيف الرسول !!

١

اشتد به الجوع ، ووجد أثره في نفسه ضعفاً شديداً ، وخوراً أليماً ، وهزالاً مضمناً ، ونحولاً يكاد يذهب به إلى الموت والفناء ، يشكو إلى خالقه ما يعانيه من ضيق وكرب في هذه الحياة ، التي ازورّت عنه بجانبها من يوم أن خلقه الله ، وعرف للحياة طعماً ، وللوجود لذة وامتعة ..

ولم يجد غير الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ملجأ له وملأذا فأسرع إليه ، ابروى ظمأ نفسه ، ويشبع بهم روحه ، وليجد في قرب به نعمياً يخفف من حدة الجوع ، ولذعة الألم ..

وكان عليه الصلاة والسلام بين صحابته كالقمر حوله الهالة ، يرويههم بفيضه العميم ، ويشملهم بمطفه البالغ ، وحنانه الكبير ، وهم بما يسمعون جد فرحين ، وبما ينالهم من الخيرات والبركات في حال من السعادة لا يقاس به حال ، كائناً ما كان ..

وكانت الشمس قد غربت ، والشفق الأحمر قد انتشر في الأفق ، حينما أخذ الرجل طريقه إلى رسول الله ، فبدت له التلال والهضاب كأنها هي أشباح تقوم على جوانب الطريق هنا وهناك ، وكأنها تحرسه لئلا يعتدى عليه ظالم ، أو يخيف أهله ممتد أئيم .. !!

وعجب لنفسه وقد أخذ يطوى الطريق إلى مجلس النبي ، كيف يسير على هذه الحال من القوة والجلد ، والصبر والاحتمال ، ومن أين له هذا النشاط ، وجسمه على ما يعرف من الضعف والخور ، والوهن والانحلال ؟!

لكننا هناك قوة روحية تسيره كما تحب ، وتدفعه كما تريد ، دون أن تكون له إرادة ما ، أو قوة يسيطر بها على نفسه وعواطفه ؛ فمضى لا يلوى على شيء ، وهو يعتقد أنه سينال الخير كل الخير ؛ ويحصل على ما يريد من أي سر سبيل ، وأقرب طريق .. !!

٢

— يارسول الله ، لقد أصابني جهد شديد ، وقضيت أياماً طاولى البطن ، لا أجد ما أتبلغ به ، وأكاد أقضى من شدة الجوع ..

وقد وقعت هذه الكلمات من نفس الرسول الكريم موقعاً حاداً ، فهو بأمرته رءوف رحيم ، وهو يتألم للبائس أكثر من ألمه ، ويحنو على الفقير والمساكين ، ويفكر فيما يصلح أحوال هؤلاء جميعاً أكثر مما يفكرون ..

وسره أن يبدو في أسلوب الرجل الصبر ، وتظهر في وجهه علامة الرضا بالقضاء ، مما يحزل له الأجر ، ويضاعف الثواب ، ويجعله في عداد الصابرين في البأساء والضراء ، وهذا فضل من الله عظيم ، ونعمة تستحق الشكر الدائب ..

تتضى وتمر ، وتخرج النفس من هذا الامتحان ظافرة منتصرة ، نقية طاهرة
وقد اتصل ما بينها وبين الله ، حيث تذكره دائماً ، وتضرع إليه ، ولا تفكر
في غيره ، ولا تنجبه إلى سواه .. !!

وتملكك الشفقة رسول الله ، وبدا على وجهه التأثر ، فما أشق على
الإنسان من رؤية الجائع ، يرهقه الجوع ، وتضنيه المسغبة ، وتؤثر في
بدنه وجسمه .. !!

وسر الرجل أيما سرور ، حينما شاهد عطف الرسول عليه ،
ومشاركته له عواطفه ومشاعره ، فأقبل عليه ، وكأئما يقبل على أب
رحيم شفيق وقال :

— يا رسول الله ، إني جائع فأطعمني .

جائع فأطعمني .. يا الله .. ترى هل في البيت طعام ؟ !

وأرسل النبي صلوات الله وسلامه عليه ، إلى زوجاته قائلاً :

— هَلْ عِنْدَ كُنْ شَيْءٌ ؟

ولم يكن من عادة الرسول أن يكون بيته حافلاً بأنواع الطعام
والشراب ، فهذا ما لا يدخل في دنياه ، ولا يرضاه لنفسه ، لأن الله
لا يرضاه له ، ولهذا كان ردهن كلهن واحداً ، لا يفترق في قليل ولا كثير ..

— والذي بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء . .

وليس هذا الجواب بجديد عليه ، فهو يسمعه كثيراً ، ولا يكون رده عليه إلا الشكر الخالص ، والحمد والثناء ، فما ينبغي له أن يفكر في أمور دنياه ، أو يشتغل بها ، وهي لا تستحق هذا ، ولا بعضه . . فاتجه إلى الرجل قائلاً في اعتذار :

— مَا عِنْدَنَا مَا نَطْعِمُكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ . .

ثم روى قليلاً ، فهذا حل لا ينفع الرجل ، ولا يشبع بطنه ، فماذا يفعل ؟ ليس أمامه غير حل واحد ، فقال لأصحابه :

مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمَهُ اللَّهُ . .

يرحمه الله . . يرحمه الله . .

ودوت هذه الكلمات في أذني أبي طلحة الأنصاري . . والله إنها الفرصة السانحة ، ينال بها الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، الذي تهفو إليه نفس المؤمن ، وتتطلع إليه أمانيه . .

ولهذا أسرع أبو طلحة الأنصاري وقال :

— أنا أضيفه يا رسول الله . .

قالها في عزم وحزم وصراحة ، ولا يدرى هل يوجد في بيته شيء ، يكفي لهذا الرجل أم لا ؟ ولكنه على كل حال سيبذل جهده ، ويعمل

٣

ومضى أبو طلحة مع ضيفه الجائع ، يوسعان الخطأ ، عليهما يصلان
سريعا إلى البيت ، فإن أخشى ما يخشاه أبو طلحة أن يذهب قبل فوات
الأوان ..

أجل ، فهو يعلم أن زوجته من عاداتها أن تطعم أولادها بمجرد أن يخيم
الليل ، ويظلم الجو ، ثم تنيمهم ، وتظل بجوارهم حتى يأخذ الكرى بمعاقدهم
أجفانهم ..

ويعلم كذلك أنه كثيراً ما نام الليالي ذوات العدد ، دون أن يتناول
طعام العشاء ، وذلك لحاجة أولاده إلى هذا الطعام ، وزوجته دائماً تؤثر
الأولاد على نفسها وعلى زوجها ، وهذا دائماً قلب الأم ، ثم هو يشجعها على
ذلك ، ولا يمانعها فيه ، فقد يضر الطفل أن تحرمه أكلة ، بينما لا يؤثر هذا
في صحة الكبير ، بل من الخير أن يمتنع الكبير ، رجلاً كان أو امرأة عن
أكلات كثيرة ، وبخاصة في المساء ، لأن هذا يريح المعدة ، التي هي
بيت الداء .. ! !

وكان هذا الشعور قد تملك أبا طلحة وهو سائر مع ضيفه ، فهو يريد
أن يدرك زوجته لتحفظ بما لديها من طعام ، بالغاً ما بلغ الأمر ، وكأننا
ما كانت الحاجة إليه ..

في اختصار ، لأنه كان يفكر في شيء واحد ، هو أن يصل إلى البيت في أسرع وقت . . .

وما كاد يدخل الدار ، ويجلس ضيفه في المكان الذي اختاره له ، بحيث يجد فيه راحته ، حتى ذهب إلى زوجته وقال لها :

— هذا ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرميه .

— أكرمه ! بأي شيء ؟ . . .

— ابذلي ما في وسعك ، ولا تدخرى عنه شيئاً . . .

— والله ما عندنا إلا قوت الصبية . . .

— قوت الصبية ! . . إذن فعندنا الخير كله . . .

— وكيف ؟ !

— عليهم عن قوتهم ، حتى يناموا ، ولا يطعمون شيئاً . . .

وتخيلت الزوجة أولادها ينتظرون الأكل ، ويمضي الوقت ويمضي ، ويمتد ويمتد ، فلا يحصلون على شيء ، يشبع منهم البطون ، ويدفع عنهم غائلة الجوع ، ثم لا يكون نصيبهم غير النوم ، يجلس أبدانهم ، ويفحص عيونهم .

تخيلتهم على هذا الوضع فكاد قلبها ينشق ، وكبدها يتفتت ، وفؤادها يتصدع ، وبخاصة حينما تخيلتهم وهم ينادون عليها ، ويهتفون بها ،

يا الله ، إن هذا شديد ، لا تحتمله قلب الأم ، ولا تطيقه بحال من الأحوال ، فكيف بالله يطاوعها قلبها على فعل ما يريد زوجها ؟

بل فعل ما يملكه الواجب ، وتدعو إليه الضرورة الملحة ؟ .. إنها مسلمة مؤمنة ، فعليها أن تكرم الضيف ، وبخاصة ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وهنا نسيت المرأة أولادها ، ولم يعد في فكرها غير أداء الواجب ، وترك هذه الأحاسيس والعواطف نحو أبنائها ، والتفكير في تعليل هؤلاء الأبناء حتى يجد الضيف نصيبه من الطعام ، الذي يشعره بكرم الضيافة ! ..

٤

ومضت الزوجة تعلق الصبية ، وتحتال للأمر ، وتظهر لهم أن الأكل لا يزال على النار ، لم ينضج بعد ، والصبية يرون القدر يفور ويفور ، ويغلي ثم يغلي ، والنار تحته ، والبخار يتصاعد منه ، والدخان يتصاعد من النار ، ثم لا شيء غير هذا .. وطال بهم الوقت ، وطال بهم الانتظار ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ، لأنهم يرون كل شيء ، ووالدتهم تقول لهم :

— إن الأكل لم ينضج بعد ..

وللنوم سلطان قاهر ، دونه أى سلطان ، وبخاصة عند ما يجن الليل ، ويح الظلام ، وسد عاز ، ما نام الصبية ، الواحد بعد الآخر ، فهدوء

عليهم ، وبخاصة وأن الطعام أمامهم ، يرونه ويؤمنون بوجوده ، ولا يشكون
في حديث أمهم ، ووعدا لهم . .

وأقبل أبو طلحة إلى زوجته يضع معها بقية الخطة ، عندما علم أن
الصبية قد ناموا جميعاً ، وأن الوقت قد حان ، ليقدم هذا الطعام إلى الضيف
في إخلاص لله ، وابتغاء مرضاته . .

قال أبو طلحة في صوت خفيض :

— إذا أتيت بالطعام فاسرجي المصباح . .

— سمعا وطاعة . .

— فإذا أخذ الضيف لياً كل ، قومي كأنك تصلحين السراج .

— ولم ؟

— لتطعميه . .

— عجباً . . وهل هذا من كرم الضيافة . .

— أجل . . لنمهد للضيف السبيل لياً كل كما يحب . .

— وهل تأكل معه ؟

— نعم ، تعالى نمضغ ألسنتنا لضيف رسول الله حتى يشبع .

ولا نأكل نحن شيئاً . .

— الآن قد فهمت ما تعنى . .

ونفذت الزوجة المخلصة المطيعة خطة زوجها بحذافيرها ، فأثرت فيما تنفذه من لبن مشوب بالماء ، لتزيد الكمية قليلا ، وحملت هذا الثريد إلى حيث يجلس زوجها مع ضيف رسول الله ، وجاءت بالمصباح ، ثم قامت تتظاهر بإصلاحه ، فأطفأته ، وهنا شمل المكان ظلمة مخيفة ، لا يكاد يرى الإنسان فيها كفه ، ولا يبصر مواقع قدميه . .

وتتظاهر الزوج بالغضب لانطفاء المصباح ، ولكن الضيف أبدي سروره بهذا ، وأن ليد القضاء دخلا في هذا ، وابتدأ الثلاثة يأكلون . . الضيف ، وأبو طالحة ، وزوجته . .

ووجد الضيف لذة ومتعة في هذا الطعام ، وبخاصة وأن بطنه كان طاويا مدة من الزمن ، وما ألدّ الطعام مع الجوع ، وما ألدّ الماء على الظمأ . . . !

كان الضيف يأكل بشهيته ، وبخاصة وأن أبا طالحة يشجعه ويأكل معه هو وزوجته ، كان يسمع صوت مضغهما جيذاً ، وأنهما يأكلان في شهية كما يأكل ، وكأنهما كانا جائعين مثله ، طاويين منذ ليال . .

يا لله ! أهكذا يتجرع المسلمون غصص الجوع والفاقة ، بينما ينعم أهل الشرك والطغيان ، بمختلف النعم ، ولا يكادون يشعرون بما يعانيه الفقير

يرضى بقضاء الله وقدره ، ويصمد للفوائب والشدائد ، إن لم يرض بهذا
المسلم ، ولا يتألم له ، بل يفرح به ، لأنه من عند الله ؟ ..

وانكشيت يد الضيف ، وحمد الله وقال :

— أكل طعامكم الأبرار ، وصدت عليكم الملائكة الأخيار ، وذكركم
الله فيمن عنده ..

وشاعت البسمة في وجه أبي طلحة ، وشاعت بسمة أخرى في وجه
زوجته ، التي حملت الإناء ، وليس به شيء ، فلقد أكل الضيف جميع
ما فيه ، وهو يعتقد أنهما يأكلان معه ..

ونام الضيف مسروراً ، ثملى البطن ، هادئ البال ، لا يجد الماء
ولا نصبا ، ولا يشعر بشيء يضره أو يثقل عليه ، فتمتع بالنوم بعد أن كان
محروماً منه ، وارتفع في الجو له غطيط .. !!

أما أبو طلحة وزوجته ، فباتا طاويين ، يشعران بالسغب والجوع ،
ويألمان الماء باغاً ، ولكن هذا كله يهون في سبيل إكرام ضيف رسول الله ،
وما أعظم راحة خاطر ، وهدوء البال والضمير .. !!

٦

وأشرقت الشمس جميلة وضاعة ، وضاحة الجبين ، تحيي هذه الطائفة
المباركة من المسلمين ، الذين رفعوا لواء الإسلام ، وأعلوا رايته ، وأحقوا كلمته ،

من أهل الشرك والمشركين ، وساد بينهم الإخاء والصفاء ، والحب والوئام
وجعلوا غايتهم رب العالمين ..

وحيا أبو طلحة ضيفه ، وذهب معه إلى رسول الله ، حيث يجلس مع
صحابته ، تظللهم الملائكة ، وتنزل عليهم البركات ، وتحفهم التجليات
والرحمات ، فلا يكون للشيطان في هذا المجلس منفذ ، لأنه لا يعرف الطريق
إلى النور ..

وكان الصحابة رضوان الله عليهم مقبلين على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، في أدب جم ، وإخلاص كبير ، وكلهم آذان مصغية ، لا يفوتهم
حرف مما يقول ، ولا يغيب عنهم معنى من المعاني ، وإن كان دقيقاً غامضاً
وكانما نور القلوب والصدور ، يجلي الحقيقة ، ويكشف الغموض ..

وما كاد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى أبا طلحة ومعه الضيف
حتى تبسم ، وتلألأ في وجهه النور ، وبدت عليه علام الانشراح والبهجة ،
ودلائل الفرح والسرور ..

ورآه الصحابة على هذه الحال ، فمألت الفرحة قلوبهم ، واستبشروا ،
وعلموا أنه الخير القريب ، لا بد أن ينالهم منه شيء ، ويسعدوا بفضله
العميم ..

وقال ، قائلهم في أدب وحناء :

وكان أبو طلحة قد أقبل، ومعه الضيف، فنظر إليه الرسول الكريم ،
ولا تزال البسمة تتلألأ في وجهه ثم قال :

— لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ .

يعنى من صنيع أبى طلحة وزوجته . . . ! !

واشتاق الناس لمعرفة ما حدث . .

ولم يكن هناك بد من إعلان الحقيقة . .

وسجل التاريخ في صفحات خلوده هذه الصفحة الناصعة لزوج وزوجة ،
واستحقا أن ينزل الله في حقهما قرآنا ، يقرع الأسماع ، ويخاطب العقول
والقلوب : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ »

وصدق الله العظيم . . . ! !